فلسطين تكتب ملحمة الإصرار على البقاء

ذ. حميد منسوم

«على المرء أن يحاول المستحيل حتى يصل إلى الممكن». هرمان هسة[1]

استحضارا لكل ما يجعل من فلسطين وقودا لذاكرتنا السياسية والثقافية، فإنني سأحبر هذه المحاولة المتواضعة منطلقا من بوح أولي ومقدمة، يعقبهما تشخيص مكثف للوضع العام قبل السابع من أكتوبر ثم الدخول في (اشتباك إيجابي) مع من يحملون تبعات المأساة الى المقاومة، لأختم بأسئلة مفتوحة في النهاية.

بوح أولي:

فلسطين جرحنا النازف ومعقل ممانعتنا المركزي، تبسمل بالمقاومة وتحمدل بالشهادة. إنها خزانة مبوَّبة ومفهرسة بشكل جيد لكل من يرغب في إغناء رصيده المعرفي من معاجم وملاحم كتبت بحبر الألم والأمل. فلسطين خاصرة العالم ونقطة دائمة في جدول أعمال الإنسانية إلى أن يطلق التاريخ سراح ابتسامته الموعودة. فلسطين مهوى القلب ولهفة انتظار جميل لمعانقة الحرية، وخاصة بالنسبة لنا كمغاربة شاركوا في مسيراتها المليونية التضامنية، وساهموا في أنشطة الاحتفال باليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني أو في تخليد ذكرى يوم الأرض (30مارس) المنظمة، إما من طرف الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني، أو بواسطة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بالحرم الجامعي بتنسيق مع

[1] هلغي باومغرتن، لا سلام في فلسطين، ترجمة محمد أبو زيد ومراجعة عصام سليمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، طبعة 2023، ص 209.

الاتحاد العام لطلبة فلسطين وبتأطير -أحيانا- من مندوب الألم الفلسطيني بالمغرب الفقيد المناضل واصف منصور*.

إن فلسطين لم تشكل مع قضيتنا الوطنية، الوجه الثاني للعملة الواحدة فقط، بل ساهمت في صناعة المعنى لدينا كجيل، انطلاقا من غزير خيراتها الرمزية في أغلب مجالات المعرفة. بدءا بلآلئ الشعر المشعة من محمود درويش وسميح القاسم وعز الدين المناصرة وأحمد دحبور وغسان زقطان... ورونق السرد، رواية وسيرة، والمتدفق من حبر الشهيد غسان كنفاني وإميل حبيبي وجبرا إبراهيم جبرا وفدوى طوقان ويحيى يخلف وليانة بدر وسحر خليفة، وإبراهيم نصر الله الروائي الذي يكتب بعينيه سردا باذخا وممتعا. ومساهمة فيصل دراج وسلمى الخضراء الجيوسي في النقد، وإحسان عباس في التحقيق والنقد معا. وانتهاء بعمق الفكر الذي أنتجه إدوارد سعيد وهشام شرابي وحليم بركات وفهمي جدعان* وابراهيم أبو لغد* ووائل حلاق*، مرورا بموسيقى الثلاثي جبران وأغاني مصطفى كرد ومجموعة العاشقين. والتشكيل عند كمال بلاطة والتوثيق التاريخي عند إلياس صنبر وعبد القادر ياسين. دون أن ننسى كاريكاتور الكوميديا السوداء للشهيد ناجي العلي وشاهده الصغير حنظلة.

مقدمة:

لست خبيرا استراتيجيا، ولا باحثا أكاديميا، ولا حتى محللا سياسيا يتوفر على شبكة لقراءة حدث لازالت تداعياته الجيوسياسية متدفقة السيولة، إقليميا ودوليا، إلا أنني

---

* الفقيد المناضل والديبلوماسي الفلسطيني واصف منصور من مواليد حيفا سنة 1945. من لاجئي أراضي 1948. دخل الى المغرب سنة 1964، وفيه عاش ودرّس وتزوج. وكان سفيرا لمعاناة الشعب الفلسطيني. كان بينه وبين المغاربة -بكل أطيافهم السياسية- حب بسخاء متبادل. ومن تجسيدات ذلك، شريط وثائقي من إنجاز الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني يحمل عنوان (واصف منصور مغربي من فلسطين). توفي الفقيد يوم 7غشت 2013 بالرباط بعد أن سرد مسار رحلته المثيرة من حيفا الى الرباط في كتابه (بعض مني).

* فهمي جدعان، مفكر من أصول فلسطينية. من أهم كتبه: أ: المحنة جدلية الديني والسياسي في الإسلام. ب: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي. ج: المقدس والحرية.

* ابراهيم أبو لغد، أكاديمي فلسطيني. أستاذ العلوم السياسية ورئيس العلوم السياسية في جامعة نورث ويسترن. من أهم مؤلفاته: أ: المواجهة العربية الاسرائيلية في 1967. ب: تهويد القدس.

* وائل حلاق، باحث ومفكر فلسطيني متخصص في القانون وتاريخ الفكر الإسلامي، أستاذ العلوم الاجتماعية بجامعة كولومبيا. من أهم مؤلفاته: أ: الدولة المستحيلة. ب: قصور الاستشراق.

كمواطن بوجدان قومي، أحس بأن الصمت في هذه اللحظة إن لم يكن مؤامرة فهو تواطؤ، ذلك أن الفظاعة التي نعيشها منذ سبعة عشر شهرا، والتي فاقت حدود الخيال والتصورات القيامية، تكشف بأن إسرائيل – بإلهها الدموي وائتلافها التلمودي - (تتوضأ) بدماء الأبرياء و(تتنسك في محراب الإبادة)، وتسوق يوميا بالصوت والصورة لكوجيطو السفك :(أنا أسفك إذن أنا موجود)، مجندة من أجل ذلك أحدث مبتكرات التدمير والتقتيل لشعب أعزل، ذنبه الوحيد، أنه أراد تذكير ضمير العالم بأكبر مظلمة في تاريخنا المعاصر والتي لم تترك له - منذ ما يفوق سبعين سنة من الاحتلال الصهيوني - سوى أن يكون إما لاجئا أو معتقلا أو محاصرا أو شهيدا. فكيف كان الوضع في خطوطه العامة فلسطينيا وإقليميا ودوليا، والذي أرادت المقاومة حلحلته بـ (التذكير) أعلاه؟

تشخيص مكثف:

قبل السابع من أكتوبر كان الوضع الفلسطيني استاتيكيا أو انتظاريا في أحسن الأحوال، والشرخ يتسع يوميا بين (سلطة) رام الله و(حكومة) غزة، والحصار وصل إلى أقصى مداه اقتصاديا واجتماعيا وخدماتيا لمدة سبع عشرة سنة، حيث أمست غزة سجنا بلا قضبان، والمستوطنات في تناسل أخطبوطي، والمستوطنون مسلحون، واتفاق أوسلو في غرفة إنعاش يموت سريريا.

أما في الوطن العربي، فإن (الديمقراطية) إما أنها جاءت فوق أكتاف دبابات أمريكية لتفرز (تمثيلية) المحاصصة انطلاقا من الهويات الفرعية والانتماءات الصغرى، ليصبح الوطن أوطانا وعلمه أعلاما، وإما (ديمقراطية) اختزلت في انتظام دوري لانتخابات تغير الحكومات دون تغيير السياسات. وفي بلد آخر أزهر ربيعه المفترى عليه خريفا سلطويا بمتحور شعبوي. أما الباقي من أنظمتنا، فقد كان يتنافس ماراطونيا لـ(الفوز) بالتطبيع، إما خوفا من بعبع إيران عند البعض، أو افتعال ثنائية حدية مقرفة تسقطك إما في شوفينية وطنية أو عدمية قومية؟؟!! عند البعض الآخر.

في حين يعيش الغرب على إيقاع التنامي المتصاعد لليمين المتطرف والفاشيين الجدد، والذين يختزلون مصدر مشاكلهم الاقتصادية والسياسية في الهجرة والهوية الثقافية للآخر. يقول الباحث الفلسطيني محمد حافظ دياب: «إن المحافظين الجدد لا يفتشون عن أسباب الأزمات في الاقتصاد وإدارة الدولة، بل في مشكلات الشرعية الثقافية»[2].

هذا الوضع العام الذي أرادت المقاومة حلحلته كلفها فاتورة باهظة من آلاف الشهداء والأسرى والمفقودين والجرحى والمعاقين، وتحولت غزة إلى منطقة غير قابلة للحياة، بل إلى مقبرة جماعية لجحيم تراجيدي، ناهيك عن: «85 ألف طن من المتفجرات، 206 من مواقع أثرية و825 مسجدا وثلاث كنائس تعرضت للتدمير. واستشهاد 174 صحافيا بينهم 12صحافية، واعتقال 36، وتعرُّض 182 مؤسسة إعلامية للقصف مع إغلاق 25 إذاعة محلية. أما الدفاع المدني المفترض أنه محايد في الحروب والصراعات، استشهد منه 85 فردا وأصيب 250 وتم تدمير 80 في المئة من معدات وآليات الإنقاذ، واستشهاد 152 موظفا من الأونروا، وتضرر170 مبنى تابعا لها»[3]. ولا زالت الإبادة مستمرة.

المقاومة ضرورة وجودية:

رغم أن السياسة تتكلم لغة المصالح لا لغة العواطف، ورغم أنني لست مؤهلا للحكم: هل المقاومة صمّمت أم استُدرِجت لـ(جحيم) أكبر من إمكاناتها الذاتية والموضوعية؟ وهل فكرت في المآلات موازاة مع الانطلاقات، أم أنها اكتفت بالإقدام دون مراعاة ممشى الأقدام بكل منعرجاته؟ إلا أنني -كمواطن - مغربي يحب فلسطين بدون تقاعد، أزعم ما يلي:

1- إنه في غياب سردية بديلة لتجاوز وضع الحجز والانحباس، ستبقى سردية المقاومة ضرورة وجودية وليست خيارا سياسيا وعسكريا فحسب. يقول محمد حافظ يعقوب: «إن

---

[2] محمد حافظ يعقوب: الحلم المحيط، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، طبعة 2024، ص 39.
[3] أسبوعية الأيام، عدد 1099، 10أكتوبر 2024.

تاريخ الحرية، هو تاريخ سيرورات كسر الانسدادات وتجاوز الحواجز التي تغلق آفاق المجتمعات»[4].

وتأسيسا على ذلك لا يمكن أن نقر بالاحتلال كمعطى موضوعي، دون شرعية المقاومة كمعطى مواز بالضرورة.

2- إن الحديث عن ميزان القوى وتوازن الرعب لا يستقيمان إلا بين جيشين نظاميين ندّيين عُدّة وعتادا. ولذلك فإن مؤشر قياس المقاومة يتمثل في صمودها، الذي يعد انتصارا لها، وخاصة عندما تباغت العدو من منطقة اللامتوقع، فتزلزل (عقيدته) الأمنية، وتشل رهانات تضخمه النرجسي.

3- لا أجرؤ على ممارسة (أبوة) نضالية باستعلاء منبري وأعطي (دروسا) تلميحا أو تصريحا للمقاومة لأنها ربما سئمت -خلال مسيرتها الكفاحية- من سماع طنين هذه الأسطوانة المشروخة من قبيل: كان عليها أن تقبل بقرار التقسيم في نهاية أربعينيات القرن المنصرم. وكان عليها أن تضبط ساعة معادلاتها السياسية تجنبا لدموية أيلول الأسود. وكان عليها أن تقبل دعوة الحبيب بورقيبة. وكان عليها أن توسع وعاء اتفاقية كامب ديفيد عوض أن تلتحق بجبهة الصمود والتصدي. وكان عليها ألا تعقد توأمة نضالية مع الحركة الوطنية اللبنانية تحت قيادة الزعيم اللاينسى كمال جنبلاط- والذي شيعه الموسيقار مارسيل خليفة برائعته جبل الباروك - حتى لا تُرحَّل قيادة المنظمة وتنضاف مذبحة صبرا وشاتيلا إلى لائحة المجازر السابقة. وكان عليها ألا تنحاز للعراق في صده للهجوم الامريكي، حتى لا تنعزل عربيا ودوليا.

وكان على حكمة جورج حبش وواقعية نايف حواتمة أن تلتقيا مع وطنية ياسر عرفات لتحسين الموقع التفاوضي في اتفاق أوسلو.

[4] محمد حافظ يعقوب، مرجع سابق ص 40.

بعيدا عن هذا (التنقير) أجدد التأكيد بأنني لا أملك حق توزيع صكوك الوطنية أو الاتهام ب(المغامرة) على فصائل هي أدرى بتضاريس وأدغال القضية، مستفيدة في ذلك من دروس التاريخ بعد أن جربت النضال بفلسطينيي أراضي 1948، ومع فلسطينيي الشتات بدول الطوق ومع المقاومة المدنية بالضفة والقطاع. وهي أعلم بأن كل حركة تحرر وطني تخوض صراعا مفتوحا ومعقدا وطويل النفس لابد أن يعتري بعض مكوناتها (وهن نضالي) تتوقف بمقتضاه عند محطة معينة، ولو بسقف أحلام منخفض، لكن مع استحضار المتغيرات ودون تفريط في الثوابت. ومكونات أخرى تعمل على التوفيق بين المفاوضة والمقاومة. في حين تؤمن أخرى بأن الحديد لا يفله إلا الحديد.

4- يزعم البعض أن حماس قامت بتديين الصراع، لكن المغيب هنا هو: أولا، حق المضطهَد في استثمار دينه بما يخدم قضيته الوطنية المقدسة، وبما يحقق حقوقه الإنسانية المشروعة في الحرية والاستقلال. وثانيا، يظهر جليا بأن إسرائيل تسعى حثيثا الى جعل أرض فلسطين (وطنا قوميا) لكل يهود العالم. خلافا لبداهة الأمر التي تجعل المؤمنين بعقيدة معينة لا يتواجدون بالضرورة داخل وطن واحد، مثلما أن وطنا واحدا يمكن أن يحتضن مواطنين من ديانات متعددة. وثالثا، إن القدس كفضاء لتعايش الديانات التوحيدية الثلاث، أصبحت حكرا على اليهود بحائط مبكاهم، في حين يمنع المسلمون من الصلاة في المسجد الأقصى، ونفس الشيء بالنسبة للمسيحيين في كنيسة القيامة. وهو ما يؤشر على أنهم سيتحولون الى (أقليات دينية) بعد أن كانوا (عرب اسرائيل).

5- إن اللغة المواكبة ل(طوفان الأقصى) تأتي -أحيانا- زئبقية ومخاتلة وتتقمص-افتراء- الحياد والموضوعية وكأنها على مسافة واحدة عندما تعادل بين المحتل والمقاوم، وذلك من خلال تصريف إعلامي للصيغة الدبلوماسية (ندعو الأطراف). أو عندما تتكلم عن القضية الفلسطينية كقضية (إنسانية) وليست سياسية. وكأن حلها بيد الأونروا أو الصليب الأحمر الدولي؟؟!؛ أو عندما تساوي بين الحرب والإبادة، وبين وقف إطلاق النار وإيقاف العدوان، وبين المفاوضات والإملاءات.

يقول المفكر إدوارد سعيد في هذا السياق: «ثمة فرق كبير بين الحوار والإذعان، وبين التعامل مع الواقع والاستسلام لشروط الطرف الأقوى. وهذه البديهيات كثيرا ما تغيب عن ثقافتنا العربية المعاصرة. فيغيب معها المعيار الأخلاقي الذي يميز المثقف بمقتضاه، الحق من الباطل، ليتخذ موقفه المبدئي، بغض النظر عن حسابات الربح والخوف من إغضاب ولي النعم»[5].

صفوة القول:

يتبين مما سبق أن المقاومة انخرطت في قدرها الوجودي بما يمليه عليها الواجب الأخلاقي والسياسي والنضالي، لكي تستمر في صناعة ملحمة البقاء. فلا داعي إذن لـ (تقريعها) مادامت إسرائيل -المجبولة على نكث العهود – لا ترغب لا في هدنة ولا سلام. فسواء بحادث السابع من أكتوبر أو بدونه، فإنها كانت تخطط -بمساعدة حواضنها الأمبريالية - ليس إلى تصفية المقاومة فقط، بل إلى تصفية القضية الفلسطينية ككل، وربما خلق سايكس بيكو جديدة، بمزيد من تفتيت وتذرير للمنطقة مذهبيا وعرقيا، واستباحة ما تبقى من السيادة على أراضيها، مع وضع اليد على مواردها الاقتصادية من مخزون المعادن ومن الذهب الأسود والثروة الزرقاء (الماء).

فهل ستتغير حقائق الصراع أم ستأخذ أبعادا أخرى بعد تصفية قيادات سياسية وميدانية من الصف الأول في غزة ولبنان، وبعد أن قُدِّمت سوريا المُمانِعة (هدية) لصفقة مشبوهة؟ وهل جاء الدور القادم على إيران واليمن؟ وهل ستستمر مؤسسات المنتظم الدولي في صمتها بعد أن تحولت إبادة الفلسطينيين الى وجبة إعلامية مألوفة ينتقلون بمقتضاها من الفظيع إلى الأفظع؟ هذه أسئلة لا تسعفني إمكانياتي -في هذه اللحظة - للإجابة عنها. لكن الثابت

[5] إدوارد سعيد. غزة أريحا. سلام أمريكي. تقديم: محمد حسنين هيكل. دار المستقبل العربي. يناير 1994.

عندي أن المقاومة تنتقل من سلف الى خلف، وقد يخبو لهيبها -في ظروف مناوئة -دون ان تنطفئ جذوتها.

أما نحن أيها الشعب الفلسطيني المشع في ليلنا، والناهض من وهدة انحدارنا، فلك منا كل تقديرنا وإجلالنا رغم ما نشعر به أمامك من خجل وقزمية. فاعذرنا لأننا لا نملك -مع الحزن المتفحم داخل قلوبنا - إلا صدق كلماتنا وصرخات حناجرنا، فمنك تعلمنا أن الشهداء الى فناء، لكن القضية دائمة البقاء. وبأننا قد نصلي على شهدائنا دون دفن لهمتنا.

مراكش: في 8 / 4/ 2025